

دلالة الشتم و السباب في شعر مظفر النواب- قصيدة يا قاتلتي أو القدس عروس

عروبتكم أنموذجا-

فريدة بوزيداني

قسم اللغة العربية- المدرسة العليا للأساتذة-بوزريعة- الجزائر

مظفر النواب شاعر عراقي شاء أو شاءت له الظروف أن يتميز عن غيره من شعراء جيله ،جيل الحداثة ورغم ما أنتجه من أشعار كثيرة إلا أنه أكثر شاعر تعرض للتغيب والإهما في الدراسات التي تناولت الشعر العربي المعاصر ..، وقد رصد الباحث عادل الأسطة<sup>1</sup> الأستاذ بجامعة النجاح الفلسطينية بعضا من أهم المؤلفات النقدية التي تناولت الشعر الحديث ولاحظ هذا التغيب المفعل لأشعار النواب ونجده يخلص في الأخير إلى أن مظفر النواب كان وما زال يشكل ظاهرة شعرية فريدة في الشعر العربي المعاصر.

عندما نعود إلى نشأته، فقد ولد في بغداد-جانب الكرخ في عام 1934 من أسرة ثرية أرستقراطية تتذوق الفنون والموسيقى وتحثي بالأدب. وفي أثناء دراسته في الصف الثالث الابتدائي اكتشف أستاذه موهبته الفطرية في نظم الشعر وسلامته العروضية، وفي المرحلة الإعدادية أصبح ينشر ما تجود به قريحته في المجالات الحائطية التي تحرر في المدرسة والمنزل كنشاط ثقافي من قبل طلاب المدرسة.

تابع دراسته في كلية الآداب ببغداد في ظروف اقتصادية صعبة، حيث تعرض والده الثري إلى هزة مالية عنيفة أفقدته ثروته، وسلبت منه قصره الأنيق الذي كان يموج بندوات ثقافية، وتقاد في ردهاته الاحتفالات بالمناسبات الدينية والحفلات الفنية على مدار العام.

توظف في بغداد ، في عام 1963 اضطر لمغادرة العراق، بعد اشتداد التنافس الدامي بين القومييين والشيوعيين الذين تعرضوا إلى الملاحقة والمراقبة الشديدة، من قبل النظام الحاكم، فكان هروبه إلى إيران عن طريق البصرة ، إلا أن المخابرات الإيرانية في تلك الأيام ألقت القبض عليه وهو في طريقه إلى روسيا ، حيث أخضع للتحقيق البوليسي وللتعذيب الجسدي والنفسي ، لإرغامه على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

## فريدة بوزيداني

سلم إلى الأمن السياسي العراقي ، فحكمت عليه المحكمة العسكرية هناك بالإعدام ، إلا أن المساعي الحميدة التي بذلها أهله وأقاربه أدت إلى تخفيف الحكم القضائي إلى السجن المؤبد.

وفي سجنه الصحراوي واسمه (نقرة السلطان) القريب من الحدود السعودية-العراقية، أمضى وراء القضبان مدة من الزمن ثم نقل إلى سجن (الحلة) الواقع جنوب بغداد.

في هذا السجن الرهيب الموحش قام مظفر النواب ومجموعة من السجناء السياسيين بحفر نفق من الزنزانة المظلمة ، يؤدي إلى خارج أسوار السجن، فأحدث هروبه مع رفاقه ضجة مدوية في أرجاء العراق والدول العربية المجاورة.

وبعد هروبه المثير من السجن توارى عن الأنظار في بغداد ، وظل مختفياً فيها، ثم توجه إلى الجنوب (الأهواز)، وعاش مع الفلاحين والبسطاء حوالي سنة. وفي عام 1969 صدر عفو عن المعارضين فرجع إلى سلك التعليم مرة ثانية.

تعرض مظفر النواب إلى الاعتقال مرة ثانية، غادر بغداد إلى بيروت فدمشق التي استقر بها ، وما استقر لأنه واصل ترحاله بين العواصم العربية والعالمية، وفي هذه العواصم حفظ الجميع أشعاره، ورددوها.

كان النواب واضحاً كالسهم و صريحاً ولا يخاف الحكام لم تثنه السجون عن قول ما يراه حقاً ولأنه كذلك كان شاعر قضية ، ليس قضيته كمواطن عراقي ، بل كمواطن عربي، يحمل هم الأمة العربية والقضية الفلسطينية ، ولم يكتف بقضايا أمته فقط ، بل كان تشي غيفارا العربي ، يؤلمه الألم الإنساني أينما كان ، يقول في قصيدة ياقاتلتي:

" هل أرض هذي الكرة الأرضية ..أم وجر ذئاب

ماذا يسمى القصف الأممي على هانوي" <sup>2</sup>

فنقرأ كيف انه يستنكر القصف الذي قامت به الولايات المتحدة الأمريكية تحت غطاء أممي على هانوي و يشبه العالم بوكر الذئاب حيث الكل يهاجم الكل و القوي يأكل الضعيف ، فشاعرنا ثوري، و سياسي و هو عندما يكتب عن المرأة ، فهي لديه ليست حبيبة، بل أيضاً قضية، هي الثورة هي الأم، هي الأرض

فالأنثى عند مظفر هي كل شيء، هي الحياة

" و الصوت كذلك أنثى

والغربة حين احتضنتني أنثى

والدكة أنثى " " <sup>3</sup>

دلالة الشتم و السباب في شعر مظفر النواب- قصيدة يا قاتلي أو القدس عروس

### عروبتكم أنموذجا-

وهو يبحث عن المرأة نقرأ له :

" فأين امرأة توقد كل قناديلي "

فهو:

" ... يريد " امرأة دفنا فأنا دفء

جسدا كفننا فانا كفاء " <sup>4</sup>

و يطلب المرأة التي يريد لها لهذا الغرض، يطلبها حبا، جنسا، أنثى

" تعالي فلكل امرأة جسدي

وتد عربي للثورة يا أنثى جسدي " <sup>5</sup>

رغم أنه يعترف أن المرأة التي يريد لها ليست مثل كل النساء فهي خاصة به وحده

يقول :

" قد أعشق ألف امرأة في ذات اللحظة

لكني أعشق وجه امرأة واحدة في تلك اللحظة

امرأة تحمل خبزا ودموعا من بلدي " <sup>6</sup>

هذه هي امرأته التي ما وجدها أبدا لأنها الحلم

نعود إلى قصيدتنا المختارة أنموذجا ففي هذه القصيدة نجد أن الموضوع هو القدس،

فحري بنا أن نرى القدس بعيون النواب ف:

" بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة " <sup>7</sup>

إذ علينا أن نتوجه بعيوننا وقلوبنا وكل ما نملك إلى القدس و القدس فقط لنفهم هذا

الشاعر.

كما نجد الشعراء العرب المعاصرين في نظرتهم للقدس قد اختلفوا، إذ اعتبرها بعضهم

مجرد مدينة محتلة وتعامل معها آخرون كمكان فني خالص، فهذا الشاعر أحمد مطر

قدم اعتذارا للقدس وهو مدرك أن عليه أن يفعل ذلك ويبرأ ذمته، فنجدته يقول:

يا قدس معذرة ومثلي ليس يعتذر،

مالي يد في ما جرى فالأمر ما أمروا.

أما الشاعر الفلسطيني المعاصر الدكتور كمال غنيم فيقول في قصيدة بعنوان " يا قدس "

يا قدس صبي من دماك على دمي \*\*\* ودعي البكاء وكبري ملء الفم -

هاتي أزاهير الألى نبتوا من الصمت \*\*\* المغمس بالأنين وبالدم

## فريدة بوزيداني

ما عاد يرهبنا الرصاص ولا الردى \*\*\* هذي ذراك مليئة برواجم

يا قدس ليل النذل سوف نزيله \*\*\* ونجىء كالفجر الوضيء الملمهم

أما خليل مطران، في قصيدة "تحية للقدس الشريف"

فيقول: سلامٌ على القدس الشريف ومن به

على جامع الأضداد في إرث حبه

على البلد الطهر الذي تحت تربه

قلوبٌ غدت حبّاتها بعض تربه

وهذا علي محمود طه يقول:

أخي إن في القدس أختاً لنا

أعد لها الذابحون المدى

أخي قم إلى قبلة المشرقين

لنحمي الكنيسة والمسجدا

أما شاعر فلسطين والمنفى محمود درويش في ونغني القدس يقول:

يا أطفال بابل

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس قريباً

وقريباً تكبرون

وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي

وقريباً يصبح الدمع سنابل

أه يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريباً

كما كتب الشاعر جمال قعوار قصيدة بعد الانتفاضة خاطب فيها القدس بعنوان

"العنوان الجديد" وهو يتحدث فيها عن القدس:

جددي يا قدس عهداً

واكتبي في الكون مجدداً

وانشري في أضلع المحتل رعباً

ليس يهدا

...

لتعود القدس حره

دلالة الشتم و السباب في شعر مظفر النواب- قصيدة يا قاتلي أو القدس عروس

### عروبتكم أنموذجا-

ولتبقى أبدا في جبهة التاريخ غره

هذه هي القدس وقد نظر إليها العرب كجرح غائر ولم يكتبوها مدينة خالدة ، جرح راح كل واحد يبكيه بطريقته إلا النواب ، النواب حملها \_ وسلاحظ ذلك أثناء التحليل \_ خنجرا داميا راح يطعن به كل من خذلها و أولهم هو كمواطن عربي، و شتيمة جارحة راح يبصقها في وجه كل الحكام العرب وهذا لعمري قمة الثورة و عنفوان الرفض، و توظيف مميز للتهكم و الشتيمة لرسم صورة هذه المدينة المقدسة المغتصبة ، رغم أن الشعر العربي لم يخل في سنواته السابقة من مظاهر الهجاء و التهكم و السخرية و حتى الشتائم ، فالهجاء قديم قدم الإنسان فهذا ابن رشيق القيرواني يعرف الهجاء قائلاً: "الهجاء هو الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح.. والهجاء ظاهر السخط والسخرية... يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه، فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشتق منها مادته والهاجي ينظر إلى خصمه لينشر مساوئه مقرأً أو ساخرًا، ويفضل النقاد السابقون ما كان من الهجاء عفاً خالياً من الفحش بحيث تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلهما".

يعدّ الهجاء إذن فناً من فنون الشعر العربي الغنائي الذي يعبر به الشاعر عن عاطفة الغضب والاحتقار أو الاستهزاء، يمكن تسميته فن الشتم والسباب لأنه على عكس المدح، وقد كثرت الهجاء في شعرنا العربي القديم لطبع من سكن الجزيرة العربية ، ومرّد هذا الطبع عنداكثر الباحثين إلى طبيعة الأرض من فقر وإجداب، وضيق الأفق فتحمدُ الشجاعه والوفاء والكرم، ويزمّ الجبن والخيانة والبخل، وتعرض الهجاءون للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق فصوّروها ، لا يأبهوا لما يعترض سبيلهم من سمعة تتحطم أو كرامة، أو نسب ينهار وعرض يفضح. فقد كان الهدف النصر على الخصم ، وتعددت أساليب الهجاء كما ذكر الأستاذ سراج الدين محمد و منها:

الهجاء الواقعي، الأسلوب الساخر، الأسلوب الصريح، أسلوب الهجاء التعريضي، و تنوع هذه الأساليب كان بتنوع الهجاء ، من هجاء فردي يتوجه فيه الشاعر إلى شخص معين ، إلى هجاء جماعي يتوجه فيه الشاعر إلى جماعة معيّنة، أما الهجاء الخُلقي فيتناول فيه الشاعر العيوب الأخلاقية للمهجو كالجبن والكذب و بالنسبة للهجاء الخُلقي فيتناول فيه الشاعر عيوب الجسد.

فأي هجاء كتب النواب و هل شتمه و سبابه يعد هجاء أو أنه نزل بشعره إلى الحضيض، أو ارتفع به إلى القمة ذلك ما سرصده في هذه القراءة لقصيدته " يا قاتلي".

## فريدة بوزيداني

رغم أن النص المختار للدراسة بدا فيه الشاعر لاجئاً إلى التعبير المباشر و هو ما لم نعهده في شعر النواب الذي غالباً ما يلجأ في شعره " إلى التعبير من خلال الصورة أو من خلال استعارة رموز تاريخية لها في الواقع المعاصر ما يشبهها تجربة أو سلوكاً و هو في هذا يبتعد عن المباشرة في القول ...و إذا ما التفتنا إلى لغته وجدنا أنفسنا أمام لغة شاعر قرأ تراثه وتأثر به و كتب بلغة على قدر من الفصاحة ... " <sup>8</sup>

و لأن الشاعر " لا يتكلم مثل كل الناس، إن له طريقة خاصة في الكلام تعتمد على شحن الكلمات بمعان حافة لم تكن لها في الأصل..." <sup>9</sup>

فعندما نقرأ المقطع التالي :

" من لم يتقاعد كي يتفرغ للهو

سيفهم أي طقوس للسرية في لغتي

و سيعرف كل الأرقام... و كل الشهداء .. و كل الأسماء "

يخبرنا النواب أنه يكتب بسرية ، لكنه لا يقصد أبداً تلك السرية التي ستحيلنا إلى توظيف تقنية القناع في النص الشعري الحدائي، هروباً من بطش السلطان، فسيرته هو تعني أن شعره لن يفهمه التافهون ، هؤلاء الذين تقاعدوا عن الفهم ليكون اللهو همهم الوحيد.

" سيفهمني

من لم يتقاعد كي يتفرغ للهو

سيفهم أي طقوس للسرية في لغتي

و سيعرف كل الأرقام .. و كل الشهداء .. و كل الأسماء "

نصه سيكون لمن يعرف قراءة لغة الدم و الشهداء و يعرف أسماء من يضحي لأجل الأوطان، نصه هو تلك الوساطة بين الأوطان و الشرفاء من هذه الأوطان، نصه من خلال توظيفه للشكائيم و السباب و التهكم و السخرية يصنع قدراً جديداً فتتمرد القصيدة على الموضوع كما يقول محمد لطفي اليوسفي فهي " تلغي ما يسى بالغرض الشعري و تفتح على أكثر من بعد، بل إنها تشرع نفسها للأبعاد جميعها...إنها تريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة..." <sup>10</sup>

هذا النص يريد تعرية الحكام و الفاسدين، يريد فضحهم أمام الشرفاء، فهو " يتبع أسلوباً حاداً مباشراً لأنه ساخط و ما جرى له يجعله يسخط و يشتم " <sup>11</sup> . هدف الشاعر هنا هو أن لا يخاف الشرفاء من الحكام عندما يفضحونهم دون خوف، تتكسر

دلالة الشتم و السباب في شعر مظفر النواب- قصيدة يا قاتلي أو القدس عروس

### عروبتكم أنموذجا-

جدران الرعب المشدودة بالسجون و السجانين و المخبرين و الهراوات و كذلك هو يهدف إلى تقريب هؤلاء الشرفاء أكثر من أوطانهم كي يزدادوا حبا لها و إيماناً بها.

أول صورة يعطيها لنا النواب للقدس هي صورتها بالقلب كما الولد:

" وخنجرك الفضي بقلبي .. وأولادي "

ونلاحظه هنا رقيقا، كما لو انه يمهد لنا الآتي، هذا الآتي الذي يشبه صورة قاتمة تنبؤنا عن حقيقة مرة

".. هذا المبغى العربي ..."

يؤكد لنا النواب واصفا نفسه بأنه مبتذل و بذيء لأجل هذا علينا أن لا نندهش لاعترافه هذا كي نتقبل كل ما سيصدر عنه من شتائم و سباب

" اعترف الآن أمام الصحراء باني مبتذل و بذيء

كهزيمتكم

يا شرفاء مهزومين

و يا حكاما مهزومين

و يا جمهورا مهزوما

ما أوسخنا .. ما أوسخنا .. ما أوسخنا

ويشرع في كيل الشتائم تباعا، فالقدس عروس عروبتكم، يا أولاد...، والقدس مغتصبة يا أولاد الفعلة ، و القدس عروس عروبتكم يا أولاد قراد الخيل.

بين صورتين واحدة عن القدس و الأخرى عن العرب يرسم لنا النواب قصيدته في تناغم ملحوظ، فالصورة الأولى التي يرسمها للقدس هي "المغتصبة" يقابلها صورة الشرف التي يلصقها بالعرب، فهم شرفاء لكن قدسهم مغتصبة و هنا تلحظ التناقض، بل المفارقة..

إذن ماذا يستحقون ... السباب و الشتم.

" و تنافختم شرفا

و صرختم فيما أن تسكت صونا للعرض

فما أشرفكم

أولاد...هل تسكت مغتصبة

أولاد ... "

ثم نقرأ الصورة الثانية حيث لا نجد إلا صورة العرب واضحة، فهم وسخون لان

" حظيرة خنزير أظهر من أظهركم "

## فريدة بوزيداني

ثم نجد بعيدا صورة كبيرة عن القدس وهي تغرز أصابعها في أعين العرب وتصرخ فيهم:  
"أنتم مغتصبي "

هنا نقرأ الشتيمة التالية:

" أولاد قراد الخيل كفاكم صخبا "

إذن بين هذه الصور المباشرة تصلنا رسالة الشاعر واضحة فالقدس مقابل العرب تعني الطهر مقابل اللاتهر والوساخة، الشرف والكرامة مقابل الذل والمهانة، النصر مقابل الهزيمة ،الخصب مقابل العقم .



دلالة الشتم و السباب في شعر مظفر النواب- قصيدة يا قاتلتي أو القدس عروس

عروبتكم أنموذحا-

الهوامش و الحواشي :

1. د. عادل الأسطة، مجلة كنعان، ع99 تشرين الثاني 1999
2. مظفر النواب، وتريات ليلية، ص ص: 470، 471
3. مظفر النواب، وتريات، ص 468
4. وتريات، ص 452
5. وتريات، ص 473
6. وتريات، ص 473
7. النواب، قصيدة الأساطيل، الأعمال الشعرية الكاملة، 24
8. د عادل الاسطة، مرجع سابق
9. محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، ص ص144، 145
10. اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، ص 145
11. أحلام يحيى، مظفر النواب، سجين الغربية والاعتراب، دراسة نقدية وحوار، دار نينوي، دمشق 2005، ص 27.